قصة قصيرة

أحلام في الشارع

بقلم : الخضر شكير
المغرب

الحلم الأول:

كان الجو غائما، أشبه ما يكون بليلة من ليالي الصيف المقمرة، حينما عدت من الغابة قريبا من منزلنا مع أحفادي الخمسة، لا أذكر الزمن بالضبط، بيد أنه كان يخيل إليّ أن الوقت متأخر بعض الشيء، قد يكون ذلك قبيل المغرب ... لا أذكر !!

كان أحفادي يمشون أمامي تارة ومن خلفي أخرى، يروحون يمينا وشمالا، لا يكادون يقرون على حال، وكنت أناديهم تارة وأهش عليهم تارة أخرى حتى يلتزموا الطريق، ولعل آباءهم ينتبهون لغيابهم فينتفضوا باحثين عنهم وعني.

سارت القافلة إلى البيت، ووصلنا أخيرا عندما نادى المؤذن « الله أكبر» لا أذكر جيدا أصليت أم لا، لكن أذكر تلك الحفاوة التي استقبلتني بها عائلتي، ابناي العزيزان وزوجتاهما، فلم أكد أتخطى عتبة البيت حتى هتف الجميع : « لقد عاد أبي، ... لقد عاد أبناؤنا » وقد تنفسوا الصعداء، كنت أنظر إليهم وهم مصطفون من حولي - كأنهم ملائكة أرسلت من توها - وكلهم جذل بعودتي، هذا يسبح، وذاك يهلل، وذلك يكبر .

كنت أنظر إليهم وأنا لا أعرف ماذا حصل ؟ فلم أعهد هذه الحفاوة من قبل . ولم أر مثل هذا النور الملائكي على وجوههم، فلم أزل أراجع نفسي حتى ابتدرني ابني الأصغر قائلا : هيا أبي اجلس، فأنت اليوم لدينا مطاع وإنك اليوم لدينا أمين، تفضلت بالجلوس - وكأنني ضيف ينتظر الإشارة- بيد أنني تنبهت إلى المقعد الذي أجلس فيه، فلم يكن عندنا مثله، كان أريكة غضة، احتضنتني احتضانا لم أستطع خلالها تسوية جلستي، فاستسلمت للراحة.

كانت زوجتا ابنيّ من الحسن والنضارة بما جعلني مشدوها، فلم تكونا بهذا الجلال، وأنا الذي كنت أعيب عليهن خلقهن وخلقتهن، ماذا حدث يا إلهي ؟!.

كظمت دهشتي وحيرتي، ودعوت الله أن يديم عليّ مشهدي.

كانت الزوجتان تروحان وتغدوان، فتأتيان مرة بفاكهة، ومرة بلحم طير، ومرة بعصير برتقال، كنت أكل وأنظر إلى تلك الفاكهة، يا للعجب !! فاكهة في غير وقتها، ولحم طير ليس موطنه، وعصير ليس كالعصير !!.

كنت أود السؤال عن كل هذا الهراء، لكنني أحجمت عن ذلك، واستحييت من تينك الزوجين الغراوين، فقد بدتا لي غريبتين.

ولم أكد أنتهي من طعامي، حتى جاء ابناي، عرفت منهما وأنكرت، هذا ابني سعيد، ملاك في صورة بشر، وأنا أذكر كيف تشاجرنا من قريب، كادت قضيتنا تصل إلى المحكمة، كان يود الاستيلاء على ما بقي لي من مال، ويذرني وأخاه عالة نتكفف الناس، وهذا أخوه مراد، لا يقل عنه وداعة، يا إلهي !! لم تكد تمر على عراكنا بضعة أيام، كانت بطلة المعركة امرأته « سوزان » وكانت تريد مسكنا خاصا، لم يرقها بيتي المتواضع الذي بنيته من زمان، كانت تريد بيتا وحدها، حتى تتملص من خدمة البيت وخدمتي وكان ابني مراد يحبني ولكن حبه لسوزان فوق محبتي، فأراد أن يخرجني من البيت، فاستعصمت وتشاجرنا .

كنت أريد أن أضع حدا لهذا النفاق، وأنادي بأعلى صوتي : كفى نفاقا، كفى هراء، غير أن حشرجة في صدري تخنقني، فما استطعت إلى الصراخ سبيلا .

واستمر العرس واستمرت الحفاوة، فهذا يأخذني على كتفيه، وهذا يجاملني، وهذا يركبني في سيارة صغيرة، وفي الأخير حملوني جميعا فوق رؤوسهم وهو يطوفون بالبيت منادين : « تحيا الطاعة ويحيا الآباء» . بيد

أنهم لما تفرقوا لم أمسك بأحد منهم، فهويت على الأرض منكسرا أحسست بعد ذلك بهدوء عميق، تحسست الأرض التي سقطت عليها، فإذا هي قاسية، باردة، تكسوها طبقة من الجليد، وظلام خفيف لا يزال مخيما على المدينة الحزينة . انتبهت من نفسي على صليل مكنسة عامل النظافة، وهو يجر إلى جانبي كومة من الأدران، كانت قد علقت بالمدينة في يومها الماضي، فنهضت منكسرا محطما، يا إلهي ... كل هذا كان حلما !!.

وقفت مشدوها، وأنا أنظر إلى المدينة، لم أفهم شيئا، المدينة ليست غريبة عني، لكنني تيقنت أنها ليست المدينة التي أسكن فيها، لكن ما أتى بي هاهنا ؟؟ .

حاولت أن أستعيد ذاكرتي، وأن أمشي قليلا لعلي أجد أحدا أعرفه فيعيدني إلى بيتي، لكن الناس لا زالوا نياما، والجو باردا وأنا ابن السبعين قد ثقلت عليَّ نفسي وقصر بصري، وعصاي التي كنت أتوكأ عليها قد أضعتها، لست أدري أضاعت في الحلم أم في الحقيقة !!

فكرت قليلا ثم أحجمت عن المسير، وعلى مقربة من مهزلتي لاحت كومة من الناس بعضهم فوق بعض، علمت أن مصيرنا واحد، فزحفت نحوهم أسألهم حالي، لكن النعاس لا زال يخيم عليهم . انتظرت حذوهم لعل أحدهم يتردى كما ترديت فنكون سواء، لكن أحلامهم تبدو سعيدة، فلم يشأ أحد منهم أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

انتظرت فأعياني الانتظار، ونسمات الجليد تشوي وجهي، وقد بدأ دبيب السيارات يزعج النائمين، ويكسر على ذوي الأحلام أحلامهم .

انتبه أحدهم من نومه أخيرا، وقد بدا شاحب الوجه، لا زال النعاس يراوده، لكنه لما رآني طرد النعاس من عينيه، وحمل نفسه إليَّ يجرها وقد بدا عليه ثقل السنين، فهو مثلي أو أقل مني قليلا .

هممت بالسؤال عن حالي، غير أنه عرف مقالتي فبادرني بالكلام: يا أخي لا تحزن، قد قدر علينا أن نعيش باقي حياتنا في أحضان الأرصفة، لكني قاطعته قائلا :

لكن ماذا جرى لي ؟ وكيف وصلت إلى هنا ؟

قال : قصتك لا تختلف عن قصتي، ثم واصل يقول : لما كان منتصف الليل، وكان النوم قد جفاني، جاءت سيارة لا أذكرها جيدا، فتوقفت على مقربة مني ثم ألقت بكومة على الأرض، كنت أظن أنها كيس قمامة، خاصة أنها لم تتحرك من ذلك الوقت، ثم قفلت السيارة عائدة من حيث أتت، لم أعر المسألة في البداية اهتماما، لكن وبعد زمن من ذلك، لاحظت القمامة تتحرك، وتنقلب يمينا وشمالا، فتذكرت ما حدث لي، وعلمت أنك مرافقنا من اليوم .

سكت قليلا ثم قلت : لا ... لا يمكن أن أكون رفيقا لكم، لا يمكن أن أترك داري التي بنيتها بيدي، وأولادي الذين ربيتهم في حجري، لا ... لا يمكن .

قال : لو كان أولادك كما تقول، لما فعلوا بك الذي فعلوا، أفتحن إلى هؤلاء بعدما بدا منهم ما قد سمعت ؟

قلت : مهما يكن، فهم أولادي، وقبل ذلك، الدار داري ومن حقي أن أعود إليها .

وهممت بالمضي قدما، غير أنه أمسكني وقال : اجلس فليس من أهل هذه المدينة أحد يعرفك، وليس فيها أحد يشفق عليك، فهون على نفسك حتى نبحث في الأمر .

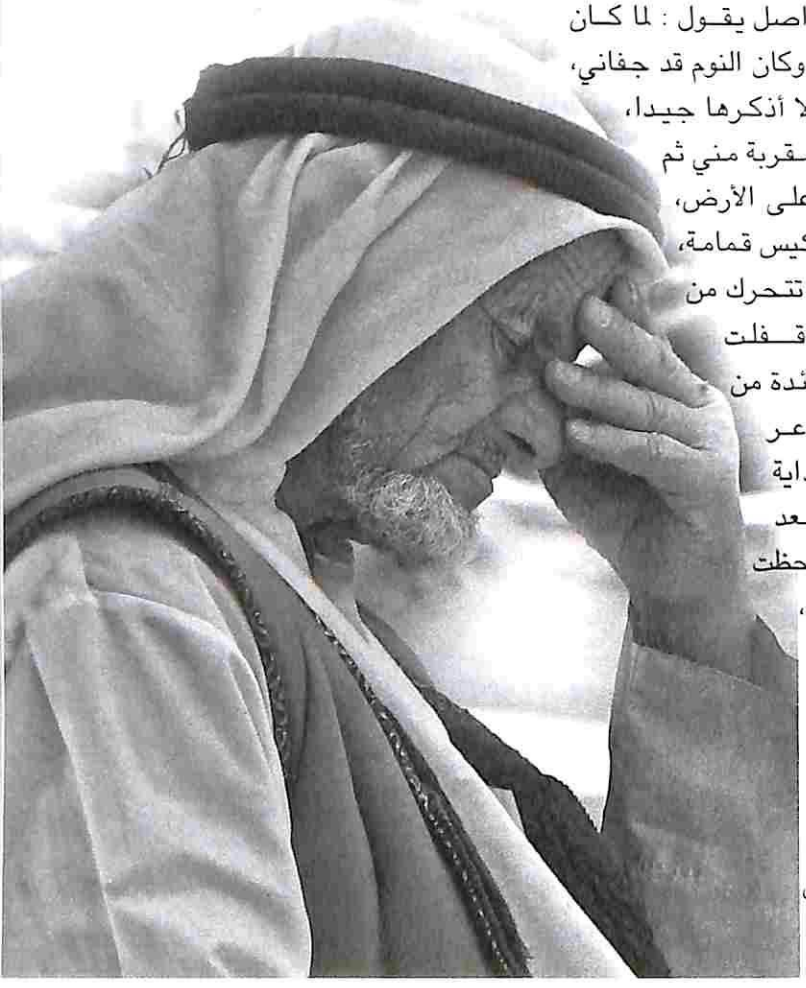

جلست معه، وأنا أستمع إلى حديثه وقصته التي أوصلته إلى هذا المكان، ولم يكد ينتهي من ذلك، إلا وقد أعاد الظلام دورته، ونحن لا زلنا قابعين على جانبي الطريق .

ولما خفت حركة الناس، وهدأ الرصيف من أقدامهم، إنهال عليّ ضرب من العياء، تصحبه آلام الجوع والقر، فشعرت برغبة شديدة في النوم، فتوسدت صاحبي وتوسدني، ورحنا معا نعانق الحقيقة .

الحلم الثاني :

لا زال الجو غائما، والرؤية رديئة، والجميع أمل في الهبوط سالمين من هاته الرحلة المتعبة .

هبطت طائرتنا في المطار الذي بدا لي بحرا لا ساحل له، نزلنا الواحد تلو الآخر، كانت الوفود تستقبل النازلين بحفاوة لا نظير لها، نظرت يمينا وشمالا لأرى من يستقبلني من أهلي فلم أعثر على أحد، كظمت في صدري غضبة شديدة، لكنني اعتبرت الأمر عاديا، ثم مضيت أستقل سيارة الأجرة .

أوصلتني السيارة إلى البيت في لمحة من الوقت، دخلت على أهلي فسلمت عليهم فلم يردوا، سألت زوجتي عما حدث، فأشاحت بوجهها عني، اقتربت من أولادي لعلهم يبوحون لي بشيء فاستعصموا، ثم نظرت إلى الجهة المقابلة حيث ينام أبي فلم أره هناك، سألت عنه وغلظت في السؤال، فأجابت زوجتي : لقد مات من أيام، عندما كنت في باريس، لقد مات وهو يعاني المرض، لم أستطع أن آخذه إلى الطبيب، فانتظر حتى أتاه الموت، وأولادك مرضى، كاد الموت يخطفهم فيلحقون بجدهم، وحالهم كما ترى .

احتقنت دمعة في جفني فكظمتها في البداية، غير أنني أرخيت العنان للصراخ بعد ذلك، فلم أزل على تلك الحالة، إلا وصاحبي يحتضنني ويهدئ من روعي .

لقد كان الحلم هذه المرة مزعجا، لقد كان أسود كاليوم، لكن ماذا يعني ذلك ؟

حاولت أن أهدئ نفسي من الحلم المروع، لكنني انتبهت إلى الرصيف، وتذكرت ما قاله لي صاحبي البارحة، فانتفضت واقفا أنشد بيتي .

حاول صاحبي أن يمسكني كما أمسكني يوم أمس، لكنني أصررت على العودة .

أوقفت سيارة أجرة كيما توصلني إلى بيتي، ألقتني السيارة قدام البيت، شكرت لصاحب السيارة معروفه، واعتذرت له عن النقود، ثم انصرف عائدا، بدا لي البيت وكأني أراه لأول وهلة، ما أجمل أن يعود الإنسان إلى بيته بعدما يقضي يومين على الرصيف، لكن ماذا بعد ذلك ؟

ذهبت أطرق الباب على أهلي، فلم يرد أحد، طرقت ثانيا وثالثا ورابعا، لكون دون جدوى، يا عجبا ! أين ذهب القوم ؟ أهم نيام ؟ أيكونون قد ذهبوا إلى العمل في الصباح الباكر ؟ أيكونون قد أخذوا إجازة ففضلوا قضاءها بعيدا عن البيت ؟ سألت نفسي كل هذه الأسئلة فلم أجد جوابا، لكنني فضلت المكوث قرب البيت لعل أحدا يأتيني بالخبر اليقين .

انتظرت وطال الانتظار، وتنبهت إلى أن اليوم يوم الجمعة، فهم لا زالوا نياما، فلم العجلة ؟ ولما حان وقت الضحى خرج أحد الأطفال من البيت .

– من ؟ فوزي، حفيدي ؟

– جدي ... هذا أنت، أين كنت، لقد اشتقنا إليك كثيرا .

– وتلك من ؟ منال ؟ أنت هنا ؟

– جدي .. لماذا تركتنا، هل كنت عند أخوالك ؟

التف أحفادي حولي يقبلونني وكلهم سرور بعودتي، وارتفعت الضوضاء في الخارج أيقظت من كان نائما .

أطلت زوجة ابني مراد من الباب ثم أدبرت، وبعد قليل خرج مراد ومعه سعيد وزوجته « ناريمان» .

تقدم مراد نحوي مكشرا عن أنيابه، ثم قال : هل عدت أيها المتشرد ؟ أما زلت تطمع في البيت ؟ البيت بيتنا، ونحن الذي بنيناه، وليس لك من الأمر شيء، ثم قال مضيفا : إذا أردت العناد فعليك بالمحكمة، فهي الفاصل بيننا .

أردف سعيد قائلا : كل الوثائق تثبت حقنا في البيت، وليس لك ما يثبت ذلك فاذهب وعد من حيث أتيت .

نظرت فيهم مليا – وقد بدأ الرشد يجافيني – ثم قلت: ألست أباكم ؟ ألستم أبنائي ؟ ثم إن البيت بيتي والمال مالي، أليس مال الولد لأبيه ؟

قالوا : بيننا القانون، والوثائق في صالحنا .

قلت أين القانون ؟ وأين الوثائق ؟ لم أكتب لأحد بيتي، ولم أوص أحدا عن مالي استدعوا القانون، استدعوا رجال الشرطة، استدعوا المحكمة، استدعوا ....

لما تصاعد صراخي، علموا أن في الأمر شجونا، فأرادوا طردي بالقوة،

لكنني استعصمت وزدت في العويل والصراخ حتى أسمعت أهل الحي كلهم .

تجمع أهل الحي حولنا - وقد كانوا في إجازة - وبعد قليل وصلت الشرطة، فانتقلنا إلى حيث السائل والمسؤول .

مكثنا في دار الشرطة بقية اليوم، وفي اليوم الموالي وقفنا عند المحكمة .

طرحت شكواي، وطرحوا حقهم، استمع القاضي إلى شكواي ثم قال : هل جئت وحدك ؟ أين محاميك ؟

قلت : أنا صاحب حق، ولست بحاجة إلى محام، وإذا أردت محاميا فهؤلاء الحضور من الجيران كلهم محامون !.

ثم انتقل إلى خصومي يسألهم، كانت الوثائق عندهم، وزادوا على ذلك أنهم نصبوا دفاعا عنهم لئلا يضيع حقهم .

استمع القاضي إليهم وإلى دفاعهم، ثم قال : الوثائق تثبت حق هؤلاء في البيت وليس لك شيء من ذلك . ثم أضاف : المحكمة لا تعترف إلا بالملموس، أليست البينة على المدعي ؟

وبعد لحظات رفعت الجلسة الصباحية، والقرار النهائي في المساء .

جاء المساء يحمل الأسى، ها هو ذا القاضي، يجلس ثم يقول: بناء على ما استمعنا إليه في الصباح، وبناء على الوثائق المقدمة من طرف المدعى عليهم، وبالنظر إلى عدم توفر البينة من جهة المدعي، فإن المحكمة تعتبر دعواه مرفوضة، ولذلك فالقضية لصالح المدعى عليهم، ويبقى البيت بيتهم، والجلسة مرفوعة !!!

اندهش الحضور لسماع القرار كما اندهشت أنا، وتخيلت نفسي في عالم آخر، يضيع حقي وأنا أراه رأي العين، قد يكون الأمر عاديا مع أناس آخرين، لكن مع أولادي ونتاج عمري فذلك ما لم أهضمه بسهولة .

خرجت من المحكمة أجر نفسي، وقد خارت قواي من شدة الصدمة، ومضيت أسير - رغم العياء - لست أدري إلى أين، أدركني الليل وأنا لا زلت أسير، وفي الأخير توقفت رجلاي معلنتين عن الهزيمة .

أناخ جسمي على الأرض مستسلما، وعلمت أنها النهاية .

الحلم الأخير :

لقد حان وقت الذهاب إلى المدرسة، أين الحليب يا أمي، وأين ملابسي الجديدة ؟ لم يكن شيء من ذلك موجودا، رأيتني بعد ذلك أخرج من البيت ومحفظتي الهزيلة على ظهري .

وصلت فناء المدرسة وأصحابي مصطفون كالجنود في ساح المعركة .

دخلنا حجرة الدرس وكلنا ضوضاء .

- المعلمة : سكوت ... الدرس مهم اليوم .

سكتنا جميعا : كانت لهفتنا كبيرة لمعرفة درس اليوم .

- المعلمة : درسنا اليوم « طاعة الآباء » .

ثم أضافت : إن من واجب الأبناء على آبائهم أن يطيعوهم، ولا يعصوا لهم أمرا، وإن الله سوف يعذب من عصى والديه ....

اكتمل الدرس وخرجنا إلى الفناء ساعة نلهو ونمرح .

لم يرق لي اللهو هذه المرة، قررت العودة إلى البيت مسرعا - وقد كان قريبا - سألت أمي بانفعال : يا أمي : كل الأطفال لهم آباء، فأين مضى أبي .

فكرت قليلا وكأنها تبحث عن إجابة غائبة، ثم قالت: أبوك ذهب ليأتي لنا بالطعام واللباس، وسيعود قريبا .

لم أقتنع بإجابة أمي، أحسست بأنها قد كذبت عليّ، فلم أر أبي من قبل ولا أظن أنه يعرفني، تذكرت ما قالته معلمتي، وتذكرت أصدقائي في الصف، وكيف أن صديقي خالدا كان دائما يحدثني عن أبيه، وعن الأشياء التي يشتريها له، أحسست بغربة قاتلة وبيتم رهيب، جلست القرفصاء تحت كرمة لنا في الحوش ثم انخرطت في البكاء .

لا زلت أبكي وأذرف الدموع، حتى سمعت نداء فانتبهت على ذلك، فإذا بعامل النظافة يناديني .. هل أنت بخير ؟.

مسحت دموع الحلم ثم قلت له : أنا بخير لا تقلق .

لقد كان حلما مروعا هذه المرة أيضا، يا لبؤس هذه الأحلام، لقد حرمت حتى من الحلم الجميل !!

طار النعاس من عيني والوقت ما زال مبكرا، لكني لم أعد إلى النوم فقد أرهقتني تلك الأحلام، ثم سألت نفسي: كيف يمكن أن تمر بقية أيامي بين الرصيف وكوابيس الأحلام ؟ أيكون مصيري الشارع بعد سن السبعين ؟ ماذا جنت يداي ؟ ماذا فعلت يا رب ؟ وهلا رحمتني ؟!.

لا زلت أمشي بخطى منكسرة وستار الليل يتقاعس شيئا فشيئا، حتى سمعت نداء خفيا « يا بن آدم، كما تدين تدان » . ■